توظيف التراث الشّعبي في رواية "اللّاز"

Employing folk patrimony in a novel “Ellaz”

صبيرة بودينة*

جامعة محمد بوقرة بومرداس (الجزائر)، sabiraboudina@yahoo.com

تاريخ الارسال 2023/01/11 تاريخ القبول 2023/02/28 تاريخ النشر2023/03/20

ملخص:

تعدُّ رواية الطاهر وطار "اللاز" من بين الروايات المهمَّة في فترة السبعينيات، والتي أرّخت لتلك الحقبة من تاريخ الجزائر بكل أبعادها السياسية. سنتناول في هذا المقال جانباً مهماً في الرواية وهو توظيف التراث الشعبي وأبعاده الجمالية والثقافية التي يطرحها الروائي، وقد تنوَّع هذا الموروث الشعبي، سواءً أكان مادّيا أو غير مادي، بين العادات والتقاليد كاللّباس أو لعب الورق. كما أن هناك الكثير مما يطبع فضاء القرية الجزائرية من أمثال وأغان شعبية؛ وهناك أيضاً ما يتعلَّق بمعتقد السّحر في الجلب وغيرها من المعتقدات كالتّطير من الأجنبي. إن رواية "اللَّاز" غنيّة بكلّ ما يمثّل التراث الشعبي؛ لأن "اللاّز" نفسه هو الشّعب بكل أساطيره وحكاياته وانتصاراته وخيباته أيضاً.

الكلمات المفتاحية: اللاز، التراث الشعبي، الرواية، العادات، التقاليد.

Abstract:

The novel of Al-TaherWatar "Al-Laz" is considered among the important novels of the seventies, which showed that era in the history of Algeria with all its political dimensions. . Whether it is material or immaterial between customs and traditions, such as dressing or playing cards. There is also a lot that characterizes the spaces of the Algerian village, such as popular proverbs and popular songs. There is also something related to the belief in magic in fetching and other beliefs such as pessimism “Tatayor” from a foreigner. And the novel "Al-Laz" is rich in everything that represents the folklore; Because the "Laz" itself is the people with all its myths, stories, victories and art as well.

Keywords: Laz, space, customs, traditions, patrimony.

1-الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية:

شهدَت "الجزائر" في السبعينيات تطوراً كبيراً في جميع الميادين؛ بما في ذلك الميدان الصناعي والزراعي والثقافي، وانعكس هذا التطور في المجال الأدبي، وقد ساهمت عوامل كثيرة في بلورة الخطاب السّردي ومنحه خصوصية معينة. منها دخول الجزائر في النظام الاشتراكي ومعاداة الإقطاعية.[1]

* المؤلف المرسل

وعليه طرحت الرواية الجزائرية موضوعات جديدة، ارتبطت بالواقع المعيش آنذاك، من بينها موضوعات "الأرض" وارتباطها بالثورة الزراعية؛ وناقشت دورَ المرأة في معركة البناء، وتحدثت عن الصراع القائم بين الطبقات،[2] غير أن أهم موضوع هو "الثورة الجزائرية" وانعكاساتها على الفرد والمجتمع معاً، يقول إبراهيم سعدي :"فالرواية في هذه المرحلة عبّرت أكثر مما سبقها عن روح الشعب الجزائري، وصورت الحياة الاجتماعية وغيرها من الأوضاع،حيث اهتمّت بالموضوعات المتّصلة بهموم الجماعة: فالروائي الجزائري انشغل بوضع المجتمع أكثر منه بالهموم الشخصية والذاتية، سواءً أثناء عهد الحزب الواحد أو أثناء التعدّدية "[3] ويمكننا القول بأن الرواية الجزائرية واكبت تحوّلات المجتمع الجزائري في تلك الفترة. من حيث التيمة والبنية، فعلى أساس التيمة، حاولت الرواية استنطاق المسكوت عنه والنزوع نحو التجريب وتوظيف التراث، ومن بين هذه النصوص رواية "اللاز" (1974م) و"عرس بغل" (1978م) للطاهر وطار، و"بان الصبح" و "الجازية والدراويش" لعبد الحميد بن هدوقة، و"نوار اللوز" (1983م) وما تبقى من سيرة "لخضر حمروش" 1989 و(رمل الماية: فاجعة الليلة السابعة بعد الألف) 1990م لواسينيالأعرج و"ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي.

مفهوم التراث الشعبي: هو كلُّ ما يمثل العادات والتقاليد والممارسات الشعبية على اختلافها؛ أو بالأحرى كلّ موروث ثقافي واجتماعي سواءً أكان مكتوباً أو شفوياً، يقول فاروق خورشيد: "مصطلح التراث الشعبي مصطلح شامل نطلقه لنعني به عالماً متشابكاً من الموروث الحضاري والبقايا السلوكية والقولية التي بقيت عبر التاريخ، وعبر الانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى"[4].

ويفهم من ذلك: أن التراث قديم مرتبط بالإنسانية؛ واحتياجاتها، فتلك الممارسات الشعبية من غناء ورقص وموسيقى وطقوس الاحتفالات المرتبطة بالزواج والزرع والحصاد[5] كلّها تعبّر عن أفكار تلك الشعوب، بمعنى أن التراث الشعبي ينشأ من الحياة الاجتماعية للناس، تتوارثه الأجيال جيلا عن جيل، لذلك فهو تراكمي، يقول أحمد رشدي صالح: "إن التراث الشعبي ينبعث من صميم الحياة اليومية للناس، ويستمدّ موضوعاته ونظراته من مظاهر حياتهم المختلفة، وعمل أجيال عديدة للبشرية من ضروريات حياتها وعلاقاتها من أفراح وأحزان، وأساس التراث الشعبي قريب من الأرض التي تشقّها الفؤوس، أما شكله النهائي من صنع الجماهير المغمورة المجهولة"[6] بمعنى أن مصدر التراث الشعبي مجهول كما هو الحال بالنسبة لألف ليلة وليلة... وكلّ القصص الشعبية، إنه تعبير عن الجماعة لا الفرد،ويمكن أن نحصر مظاهره في ما يلي:

(العادات والأعراف الشعبية، المعتقدات والأفكار الشعبية، الفنون الشعبية، والأدب الشعبي).

وهذه المظاهر تتجلى في ثقافات الشعوب، وتقترن بذاكرتها الجماعية، وتتجلى في سلوكات أفرادها وتتوارثه الأجيال في ثقافاتها[7].

ونفهم من ذلك كلّه أن التراث هو خلاصة ما أنتجته الإنسانية سواء أكان مادياً (كاللّباس التقليدي أو الطبخ... وغيرها) أو كان غير مادّي (مثل القصص الشعبية، الأغاني، الأساطير والحكايات والأمثال وغيرها...)، يتصف بخاصية عدم التدوين أي ينتقل عبر الأجيال عن طريق المشافهة.

ينشأ التراث الشعبي تلبية لاحتياجات الأفراد؛ في حقب زمنية مختلفة؛ ويحمل صبغة كلّ أمة وطابعها، إنه يعبّر عن أحزان وأفراح الأفراد والجماعات؛ فهو في الأخير يمثّل روح الأمة وخصوصيتها، وإن كان هذا التراث غالباً ما يتأثر بباقي الثقافات التي يجاورها، لذلك نلاحظ التشابه الوارد في قصص الشعوب وحكاياتها وأمثالها.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا يلجأ "الروائي" إلى التراث؟ ما الغاية الجمالية التي يحقّقها التراث في عملية الكتابة؟ وهل يتوارى الرّوائي خلف التراث ليتحدث عن قناعاته في الحياة؟ وآرائه السياسية؟ بعبارة أخرى هل يستخدم "الروائي" التراث كتعبير عن إيديولوجية معينة؟ ولكن قبل الإجابة عن كل تلك الأسئلة ما هي عناصر التراث الشعبي في رواية "اللاز"؟

أ-التراث المادي:

1-اللباس:

تدور أحداث الرواية في قرية جزائرية في عهد الاستعمار؛ لترسم الفقر والجوع؛ فالألبسة الرثَّة والأحذية القديمة تعبّر عن معاناة الجزائريين؛ ولكنها تعبّر عن الهوية الجزائرية "في أحلك الظروف، فالبرانس" و"الشيشان" هي ألبسة الجزائري التقليدية التيتميّزه.

"إننا، كما عرفنا أنفسنا، منذ خلقنا، "الشيشان" على رؤوسنا تكاد تقطر وسخاً، "البرانس" مهلهلة، رثة، متداعية، والأحذية مجرد قطع من الجلد أو المطَّاط، تشدّها أسلاك صدئة، والأوجه زرقاء، جافة..."[8]، فاللباس يرتبط بالهوية العربية وحتى بلون البشرة.

(...والأوجه زرقاء جافة)[9]، فاللّباس في الأخير يعبّر عن الهوية والانتماء، وكذلك "القشابية"، وهي لباس المجاهدين لأنها تقيهم البرد "لو لم ينفتح الباب، ويقتحمه شاب ملثَّم، تلفّ قامته القصيرة" "قشابية" سوداء وعلى كتفه رشاش صغير"[10].

2-لعب الورق ودلالة اسم "اللاز":

من البداية؛ ومن العنوان "اللاز" وهو بطل الرواية، يرتبط اسم اللاز بالورقة الرابحة في لعب الورق، يرتبط بالفوز على الرّغم من تغيّر الظروف، ذلك أن "اللاز" هو الشخصية الوحيدة في الرواية "هذه المرة الأولى أقبّلك يا اللاز يا ابني... كنتُ دائماً أعلّق عليك آمالاً كبرى، وكنت أثق في أنك لا تخون أبداً، لأنك لا تطمع في شيء، ولا تخشى ضياع شيء..."[11]

"فاللاز" هو الابن الشرعي للثورة، وإن كان غير شرعي بالنسبة لأهالي القرية، فإنه "ابن زيدان"، فهو يمثّل الثورة وشرعيتها. وأحقيتها في الفوز.

"آه .أيها اللاز، اللاز حتى اسمك لا يحمل معنى محدوداً... في القديم كان يُطلق على الجزء الأدنى من العملة النقدية، والآن يطلق على العدد المفرد في أوراق اللّعب، وبينما هو في الحجر يمثل أدنى رقم، الرقم الأول في العدد مجاوراً للبياض، يمثل في "البيلوط" الرقم الأعلى... الوحيد في البيلوط الذي يحتفظ بقيمته مهما تغيّر اللون المنتخَب. المعنى المجازي للّاز هو البطل،[12] في غير لغة قومه، أما عندهُم، فإنه اللقيط، أو كل أعور يُتشاءم منه[13].

يمثّل "اللاز" الشعب الذي قادَ الثّورة وانتصر، ويحاول البعض سرقة إنجازاته وإنجازات الثورة. "آه .أيها القَذر، إنك لا تمثّل شيئاً، إنك لا تمثل غير هذا الشعب اللّقيط، غير هذه القضية المفتعلة التي انفلتت من دبر التاريخ".[14]

وحتى الأخوات الثلاث اللاواتي يعاشرهن حمو وهن الدايخة وخوخة وأم مباركة تشبهن نساء ورق اللعب في جمالهن واتحادهنَّ في فراش واحد.

"لسبب ما،أنا أيضاً، لم أنصرف لأستريح قليلاً، رغم الاجهاد الذي كنت أعانيه... اقتحمت غرفتهن... حبوت حتى بلغت مضجعهن، واستلقيت كما صادف...كن الثلاث، متداخلات في فراش واحد، كأنهن نساء ورق اللّعب "السوطة" أو "القراط"[15].

يرتبطُ لعب الورق أو الحجر بعادات أهالي القرية أثناء ليالي السهر؛ لذا فهو يناسب فضاء القرية ويعد جزءًا من نسقه الثقافي "كان الناس على الأقل، أحرارًا في أن يسهروا .. في اللّيل أو النهار، بلا أية رقابة أو مضايقة... و قدور، كان يحب السّهر كثيراً لا في المقاهي، يلعب الورق أو الحجر . .. "[16]

فالكثير من العادات والتّقاليد ترتبط بفضاء القرية، باعتبار أن الفضاء الروائي ليس مجرّد مكوّن سردي؛ كما يقول جولد ستين: "يكون الحدث الروائي مموضعاً في معظم الأحيان، فكلّ رواية تحوي طوبوغرافيا نوعية، تمنحها نغمتها الخاصة... ذلك أن الروائي يختار موضعة الحَدَث والشخوص داخل فضاء واقعي مستعار من الواقع".[17]

لا تكمُن أهمية الفضاء الروائي في تمركز الأشخاص، وهو أمر بديهي،لأن كلّ روائي بحاجة إلى زمان ومكان لعمله الروائي؛ فإن هناك دلالات ثقافية تطبع المكان وتعطيه شرعيته، فالقرية مهد الثورة الجزائرية؛ ولذلك الكثيرُ من العادات والتقاليد ترتبط بأمكنتها كالحرث لعب الورق وغيرها من العادات.

ب _التراث غير المادي

1-الأرقام التي تحمل دلالة دينية وأسطورية:

العدد خمسة (5) للعدد 5 الكثير من الدّلالات المرتبطة بالثقافة الشعبية الجزائرية وحتى الدينية؛ بالإضافة إلى رقم سبعة (7)هو الآخر، يبدو أنه يحمل دلالة النص "الإخوان اقتربوا البارحة، ذبحوا خمسة إخوة وحطّموا مدرسة وحبسوا"[18]

وفي مقام آخر يشير إلى نفس الرقم '5) "كانت العلامة تحمل اسم القرية القادمة، ورقم خمسة"[19]

و"انفتحت الأبواب ووثب الشباب الخمسة، وتقاسموا الأسلحة، إن الرقم "5" يدل على الحظوة والنصر؛ ولذلك يرتبط هنا بانتصارات المجاهدين غير أنه يرتبط أحياناً بإخفاقاتهم .

"وما إن كان يفعل: حتى فوجئ بدورية تحيط بخمسة أوروبيين موثقي الأيدي وتقودهم نحو المجلس" لأننا سندرك في نهاية الرواية أنه تم قتلهم على يد الثُّوار لمجرد انتمائهم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي.

وكما يتكرَّر العدد خمسة، يتكرّر العدد "سبعة" لعدة مرَّات؛ نذكرها على التوالي:

1- "والحق، أن حمو يبالغ بعض الشيء حين يقول أربعة عشر فماً مفتوحة، فهي ليست سوى عشرة أفواه.. أخوه زيدان، وزوجته، وسبعة أطفال، وأمه.."[20]

2- كان الخنجر حاذَّ الشفرة، قبلته على ظهره، وهويت على قفاه، بكل ما أملك من قوة. تطاير رأسه، حملته على راحتي، وظل يتكلَّم وحده؛ عندي سبعة أولاد يا إخواني".[21]

والعدد في الحالتين يشير إلى الكترة، وفي حالات أخرى يدلُّ على الظّفر بالعدو "البارحة ذبحت سبعة. ذبحتهم بيدي هذه أنظر"[22]، وعادة ما يرتبط بالمجاهدين وحالات النَّصر "جمع زيدان وحدته على بعد بضع مئات أمتار من كوخ سي الفرحي ثم قسمها إلى أربع فرق صغيرة، ثلاث تتكوَّن كل واحدة منها سبعة جنود".[23]، وفي حالات أخرى قد يعني العدد سبعة البدايات الجديدة؛ "... وقبل انقضاء الأسبوع ألفتني، وتعودّت وجودي معها، تستقبلني وتودّعني بابتسامة، وتحصر وجنتاها، عندما ترفع خصرها، وتحدني أحدّق فيها. وفي اليومالسابع ناولتني ورقة، بعد أن صافحتني لمرة " 20 وللرقم "تسعة"الكثير من الدّلالات في القرآن الكريم {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير}[24]، وحتى البناء الكوني كلُّه قائم على [25] الرقم سبعة؛ ولهذا فهو يمثل في الثقافة الشعبية والحكايات الشعبية رقم الحظ والنصر.

يحملُ العدد "7" دلالة أسطورية: ذلك أن "الأسطورة يهتمُّ بها كل من علماء الفلكلور، و علماء الإناسة ومؤرخي الديانات وعلماء الاجتماع" وترتبط بثقافة معيّنة".[26]

2-التطير: يرتبط بالسُّلوك اليومي للأفراد، وعادة ما يقترن بنذير الشؤم، ويقال: "الطيرة" وهي التشاؤم وهي عادة كانت شائعة عند العرب في الجاهلية إذ كانوا يتشاءمون من حيوانات كالغراب أو البوم.

أما "التطير" في رواية "اللاز" فيرتبط بكثرة الضحك ! وهو سلوك غريب يستهجن الفرح "بيد أنه لم يكفّ عن الضحك إلا بمشقة، وظلَّ يغلقُ فمه بكمّ سترته، وعندما هدأ تمتم:

- يا ربي سمعنا خيرا

ثم تساءل:

- لماذا يتوقع النَّاس المكروه بعد الضحك؟
- هاه، ابن أمه، رجعنا لحكايات العجائز.
- والله العظيم، وحق ربي جرّبتها، كلما ضحكت كثيراً أصابني مكروه".[27]

فالتّطير ينشأ من سلوكات وتجارب حياتية معينة توارثتها الأجيال: فكان من الحكمة تفاديها لأنها تؤثر سلباً على حياتهم العادية ! ويبدو أن "زيدان" لكثرة ما مرّ به من مآسٍ، استهجن الفرح !أو لأن على القائد أن يكون حازماً، "لذلك يصفه السارد بكثير من الشّجاعة والوقار "وحدّق فيه جيداً... لم يتغيّر سوى لباسه..."[28]

هو هو بطوله الفارع، إنه ينحني حتى لا يلامس السقف... هو هو بوجهه الأسمر المائل الزرقة، وذقنه الطويلة، وجبهته العريضة المخددة، وأنفه الطويل الحاد، وفمه المستطيل كأنه بدون شفتين، وعينيه السوداوين العميقتين، الجادتين، الرّهيبتين كأنها سجن أو سور روماني هزم بعناده الدّهر.

– على سلامتك يا الغول".[29]

"فزيدان" كسياسي وقائد تقترن به عدّة صفات سيدية كالجمال والهيئة والشجاعة والحزم؛ لذا شبهه السّارد بـ "الغول" كدلالة على ما يثير في أعدائه من الخوف. لذا فكثرة الضحك والقهقهة لا تتلاءم مع طبيعته.

3–الحكاية الشعبية (حكاية الغول والغولة): ترتبط الحكايات الشعبية بتفكير الشعوب البدائية كما الأساطير؛ وتمثل نظرتها للحياة، فهناك حكاية شعبية رائجة في الثقافة الشعبية الجزائرية وهي حكاية "لونجة والغول" ويمثل "الغول" الشرّ؛ ولقد ورد اسم "الغول" في وصف "زيدان" "على سلامتك يا الغول"[30]

وهي دلالة على كائن لا يُقهر؛ أما "الغولة" فقد وردت فيما يلي: "يترك الأمور تجري كما عنّ لها، يستسلم كأنما سلبت الغولة عقله".[31]

وهيَ ترمز إلى التأثير الشرير والخفيّ لهذا الكائن؛ وقدرته على سلب النوم كما الحياة من الأفراد .

4–الأغاني الشعبية: تدُورُ أحداث الرواية في قرية من قرى الأوراس لذا الكثير من العادات والتّقاليد ترتبط بالمكان كالفناء؛ فالأغنية الشاوية تتّسم بالكثير من الزّخَم والتنوع، إذ تعبّر عن الإنسان الأوراسي ونظرته للحياة وللحب والحريّة وحتى التّمرُّد على العادات والتقاليد؛ ونذكر على سبيل المثال لا الحصر الذين نجحوا في تأدية الأغنية الشاوية (بقار حدة، عيسى الجرموني الذي يعدُّ أول جزائري أمازيغي غنّى على مسرح الأولمبيا سنة 1936).

لذا ترد الأغنية الشاوية (الهوى فالروس) وتعبّر عن قساوة العيش أثناء الحرب الكبيرة... اشتغلت بالتهريب والبيع والشراء وما شابه".[32] ومطلع هذه الأغنية هو كالآتي:

يا لحن الروس، التموين غال ومخصوص

يا لحن الجبال، انهض للهو وتعال

فالأغنية الشاوية هنا هي دعوة للفرح مقابل قساوة الحياة (انهض للهو وتعال)[33]

5–استخدام السّحر والشعوذة لجلب المحبّة:

ويرتبط هذا السّلوك بشخصية قدّور التي تختلف عن زيدان في عقليته.

- يا ابن عمي، زيدان مريض، ضايع، أهلكته السياسة. كل يومٍ في مكان عجزت عن فهم ما في السياسة هذه، التي تهلك رجلاً مثل زيدان".[34]

فحمو يعاني من صدّ "زينة" له ولذلك يلجأ إلى الطرق الملتوية لكسب ودّها ومحبّتها "وينطلق في الحديث عنها، عن شعرها الفاحم، عن عينيها الكبيرتين، الدعجاوين... عن شفتيها الصغيرتين الممتلئتين، وعن اسنانها اللؤلؤية... عن بسمتها الملائكية.. عن عنقها البلوري..عن حركتها، عن صدها وكبريائها، عن كلّ شيء في زينة...وعن كل ما يفعله من أجل استمالة قلبها.

حقّ ربي، ما تركت بابا... خسرت أكثر من عشرين ألفا، حرز سي حمودة وما أدراك لم ينفع.. سحر سي القريشي، وما أدراك كذلك.. وحرز سي عثمان وما أدراك،كذلك.

ويستغرق قدور في سرد أسماء كل الذين استعان بهم، وكل ما بذله، حتى اشترى أخيراً كتاب الشيخ السيوطي، الرحمة في الطب والحكمة.

- فيه حكمة جربتها ونفعت".[35]

والحقيقة أن هذا الكتاب (كتاب الرحمة في الطب والحكمة للإمام السيوطي" هو كتاب في الطب، تناول فيه السيوطي علاقة الطب بالطبيعة إذ تعدُّ مصدراً للغذاء والدواء؛ كما تناول فيه علاج الأمراض، فشخّص الأمراض وأعطى لكل داءٍ ما يلزمه من دواء، غير أنه هناك إشارة ضمنية لما كتب السيوطي في الحب منها: "الوشاح في فوائد النكاح" و"شقائق الأترج في رقائق الغنج"، وإن كان الإمام عالماً في علم الحديث وفي النحو، غير أنه لم يمنعه ذلك من تأليف كتاب في الحبّ[36] فالسّارد يشير إلى الثقافة الجنسية في الموروث العربي الإسلامي.

6-توظيف الأمثال الشعبية:

ترتبط الأمثال الشعبية بتجارب الحياة اليومية وخبرات الأفراد: ممّا يولّد لديهم الحكمة والرؤيا في الحياة؛ وهناك في رواية "اللاز" تكرار الأمثال الشعبية لـ ثلاثين مرة، سأذكرها كالآتي:

1- ما يبقى في الواد غير حجاره.
2- لترهنه بعه.
3- كل شي بالمكتوب.
4- "اعطها بالدين، وما تلوحهاش في الطّين.
5- لو كان يحرث ما يبيعوه.
6- كي تجي تجيبها شعرة، وكي تروح تقطع السلاسل.
7- اسأل المجرب لا تسأل طبيب.
8- لا يبقى في الواد غير حجاره.
9- الشامي شامي والبغدادي بغدادي.

10- وما في الجبل يبقى في الجبل... كل واحد في حاله.
11- دعاوي الوالدين تنفذ في الضناية.
12- النخالة تجلب الكلاب
13- أزرق عينيه لا تحرث لا تسرح عليه.
14- الذئب يقول: "اللّي تتلفته أجريه.
15- ما يبقى في الواد غير حجاره
16- الدوام يثقب الرخام.

بعد أن أحصينا الأمثال الشعبية في رواية "اللاز" يمكن أن نلحظ تكرار المثل الشعبي (ما يبقى في الواد غير حجاره) لعشر مرات، حتى إن الرواية تنتهي به وتبدأ به، لأنها تعبّر عن رؤيا الكاتب منذ البداية، إنها المقولة التي يردّدها "اللاز"

- "ما يبقى في الواد غير حجاره

فراح الشيخ الربيعي يتمتم.

- اللاز.... اللاز المسكين..."[37]

يعبّر المثل الشعبي عن الحقيقة التي لا يمكن حجبها مع مرور الزمن لأنها ستظهر أخيراً "الصح هو الحق... وهذه البلاد ليس فيها حق، نحن سيأتي يوم، ولا يبقى في الواد إلا الحجارة إلا الصح إلا الحق"[38]. لقد كانت رواية "اللاز" حديثاً عن إخفاقات الثورة منذ 1954م، لأنها أقصت الأطراف الأخرى؛ وأقصت الحوار حتى إنها أعدمت أصدقاء الثورة وهم زيدان وأصدقاؤه الأوروبيون الذين آمنوا بها "علق القبطان الإسباني، في حين قال زيدان:

- الذبح للخونة وللمضادين للثورة، أما نحن... فبأي عنوان نذبّح؟
- .. فتساءل فرنسي كان مزارعاً:
- نحنُ متطوّعون جئنا نعينكم إذا لم تقبلوا تطوّعنا وإعانتنا، لا يجوز لكم أن تساومونا وعقائدنا".[39]
- هذه الصراعات بين قيادات الثورة والتي كانت تحاول أن تعطي شرعيتها للثورة؛ جعلتنا نتساءل: من الثوري ومن الخائن؟
- فحين يجيبنا السارد بأنه "اللاز" هو الذي يمثل الشرعية الحقيقية "...فيك بذور كل هؤلاء يا اللاز... بذور كل الحياة... كالبحر... لا إنك الشعب برمته... الشعب المطلق، بكل المفاهيم... المهم إنه مدرك، مدرك بغريزته، كالكلب، أو كالقط، أو كأي حيوان ... مدرك لعفونة الوجود، ويرفضها بطريقته الخاصة... إنه البحر... بل الشعب برمته".[40]

- يمتلك "اللاز" الأحقية والشرعية؛ كما يمتلك كلمة السرّ بين المجاهدين "ما يبقى في الواد غير حجاره" "سيأتيك الأخ المناضل المكلف بهم، دورك أن تخبر أحمزي بالموعد الذي يخرجون فيه، الباقي لا يهمك، كلمة السرّ بينك وبين المناضل المكلف هي: "ما يبقى في الوادي غير حجاره يقولها ثلاث مرات"[41] بطريقة أخرى يعبّر الطاهر وطار عن رؤياه للثورة: وكيف أنها أخفقت "... يا لها من قسوة... الموت في الثورة حل صالح لجميع المشاكل، يموت الخائن، يموت المسبل، يموت الاثنان موتة واحدة، وعلى يد واحدة... يموت الأول لتستريح منه الثورة... لكن الثاني لماذا يموت؟ ألتستريح منه الثورة أيضاً؟ يا للقسوة..."[42]

إن كان المثل الشّعبي "ما يبقى في الواد غير حجاره" تعبير عن رؤيا سياسية، فإنّ هناك أمثالا شعبية ترتبط بالأرض وذهنية الفلاّحين وأبناء الريف،في رؤية الحياة والحكم عليها وحتى الحذر منها "الفلاحون وأبناء الرّيف والقرى الصغيرة، كلّهم حذرون، وأشباه ذئاب في نظرتهم للحياة.. خاصة هذه الحياة الملأى بتناقضات الانتقال من البداوة المحضة إلى شبه التحضر والمدنية، وهم لا يهضمون أو يتقبلون جديداً، إلا بعد عجزهم عن مقاومته... لا يطمئنون إلا لأنفسهم وخططهم".[43] لهذا فعقلية الفلاح وارتباطه بالأرض والحرث ترتبطبالأمثال الشعبية الآتية: "أعطيها بالدين؛ وما تلوحهاش في الطين" و "لو كان يحرث ما يبيعوه" و "ما ترهنه بعه"[44] إنها تعبر عن منطق قدور وتقديره للأشياء والحكم عليها وموازنته بين الربح والخسارة.

هذه الأمثال تناسب عقلية الفلاحين ومنطقهم في الحياة والذي يبنى على الحذر واليقظة.

وهذا الحذر يلازم قدور لذا يتردد كثيراً في الالتحاق بصفوف الثورة، لذا يقول: "لكن ما هو هذا الصّح؟... أهي القوة إن فرنسا قوية جداً، أقوى من أي شيء... أهو الدبابات؟ إنهم لا يملكونها... أهو الدافع؟... إنها ملك لفرنسا... المال؟ مال الدنيا كلّه عند الفرنسيين".[45]

الكثير من الأمثال الشعبية تعكس تردد قدّور كقوله "وما في الجبل يبقى في الجبل... كل واحد في حاله"[46] حفاظاً على مكاسبه في التجارة "كل واحد في حاله... هو في متجر أبيه، مع الميزان والتوابل والسّكر والقهوة والزيت والشحم... وزينة ."[47] غير أنه مجبر على الاختيار والالتحاق بصفوف الثورة، أو يلقى مصيره المحتوم وهو الذبح" وماذا لو نبقى هكذا؟ كل واحد في حاله...؟

ويأتيه الجواب صارماً متحدّياً هادراً عنيفاً كالرّعد[48]

ورأس ابن عمي، فات الحال إما وإما... "الشامي شامي والبغدادي بغدادي، الذبح من جهة والرصاص من جهة . والحقيقة أن السارد يشير إلى حمو وقدور كنماذج ممن التحقوا بصفوف الثورة دون أن يملكوا وعياً سياسياً كما يمتلكه "زيدان" الفرنسيون نخافهم، نحترمهم، نتفانى في تقديم الخدمات لهم، ولماذا نحاربهم أو نخاصمهم.

اسمع .أنا لم أبدأ في تتبع السّياسة إلا منذ وقت قصير. لكن أخي زيدان أفهمني كل شيء. ويبذل حمو كل ما يملك من جهد فكري لإقناع قدور بما أقنعه أخوه زيدان ويستعرض كل أفكاره".[49]

كما تكشف الأمثال الشعبية عن "التطيّر" وعدم الثقة في الآخر؛ هذا الآخر الذي يمثله الأجنبي "قال لي زيدان مرة، أجدادنا يتطيّرون من الأشقر والأصهب والأشهب والأبيض الناصع، ويقطعون طريقهم إلى السوق أو غيرها، إذا ما اعترضهم شخص أو حيوان من هذا النوع... وإلى الآن لا تُحمل العرُوس إلا على بغلة سوداء"[50]، لأن هذا الأجنبي المحتل لم يحمل معه إلا الخراب؛ لهذا يترسّخ في اللاوعي الجمعي للجزائريين كرههم للآخر منذ الرومان "علل ذلك بالقطيعة التي كانت بين الشعب وبين الدّخلاء الرومان"[51]، حتى إن الكثير من الأمثال الشعبية التي تحثُّ على محاربة الآخر وعدم الاقتراب منه.

كهذا المثل الآتي: "أزرق عينيه لا تحرث ولا تسرح عليه"[52] حتى إن الأساطير الشعبية مرتبطةٌ بكره الآخر ورفضه رفضاً تاماً "... وقال مرة أخرى إنّ الرهباني أو الروماني في كل أساطيرنا، أشقر، أزرق العينين... لم يتعلّم أجدادنا أبداً لغة الرومان، لكن سرعان ما تعلّموا لغة العرب".[53]

فالصورة النمطية للآخر (الغازي) مرتبطة بملامحه الجسدية (كزرقة العين) التي تدل على الجنس الأبيض (الرجل الغربي) إنها صورة مرتبطة بالمستعمر أو المسيطر "للمسيطر صورة مركزية تعود إلى فانتزمات المستعمر القديم، وواسم الشعوب المستعمرة، ومستغل العالم الثالث..."[54]

لهذا يجبُ الحذر منه بل الاستغناء عنه أو محاربته في كلِّ الأحوال، وحتى الحذر لكل ما يشبهه فقائد فرقة الجديد هو أشقر. لذا توجّس منه حمو خيفة تنمو على الحذر "ثم قدّم لهم القائد الجديد، وامتطى بغلة، وأردف اللاز خلفه، وأمر الكابران رمضان أن يردف مبعوث القيادة، الذي ظلَّ حمو ينظر إليه ويردّد "أزرق عينيه، لا تحرث لا تسرح عليه"[55]، فهذا القائد نذير شؤم بالنّسبة لحمو ولا يبعث على الثقة.

- والحقيقة أن شخصية الأشقر (المبعوث الجديد من القيادة يحمل عدة صفات كالخبث والمكر وعدم التردد ..."
- حسنا، ماذا كنت تشتغل قبل أن تتجنّد؟
- أبيع الريح وأقبض الصّحيح.
- معلم قرآن، إذن طالب.
- هاها... أتعرفون أن الطّالب والكلب لا يتعاشران".[56]

كما أن هذا الأشقر يتميّز بالحنكة وسعة التّجربة في الحياة. — إيه رأس المحاين.... في الأصل راع، ثم لص، قفاء آثار، وفي عام النخالة وسنوات الحرب الكبيرة. اشتغلت بالتهريب والبيع والشراء وما شابه "[57]كل هذه التّجارب الحياتية القاسية صنعته؛ لذا فحنكته كحنكة الذئب "الذئب يقول: "اللي تتلفته اجريه"[58]

وهناك من الأمثال الشعبية ما يتعلق بالحب وقوته، ذلك الحب العاصف بين قدور وزينة، حتى إن صديقه حمو يعلّق على ذلك "كي تجي تجبها شعرة؛ وكي تروح تقطع السلاسل"[59] كناية عن بدايات الحب السّهلة ونهايته الصعبة؛ وهناك ما يرتبط بالحكمة التي تفوق العلم؛ لأن الحكمة تولد من تجارب الحياة وحدها، وهي القادرة على تعليم المرء ما تعجز عنه الكتب؛ وهنا ترتبط الحكمة بصوت الأم (أم قدور) :"... اسأل المجرب لا تسال طبيب" لقد أدركت بحاستها سرّ العلاقة التي تجمع بين ابنها قدور وزينة.

"كنت خائفة عليك. وعارفة كلّ شيء "...اسأل المجرب لا تسال طبيب، غير أنها ملأت أنفها برائحة العطر، وولّت إلى غرفتها "[60]؛ كما أدركت الأم حيرة ابنها في الالتحاق بالثورة "انكشف أمركم؛

- أي أمر؟
- اسأل المجرب لا تسال طبيب. يا قدور يا ابني، أنا عارفة كل شيء، قلب الأم هو خبيرها".[61]

يبدو أن الحكمة أيضاً نرثها من تجارب الأمهات ونتعلمها منهن "كان قدور يعتقد أن القضية لا تتعلق إلا به وحده، ولا يعلم بها سوى اللاّز أو أمه... ورنّ في أذنه صوت أمه: -اسأل المجرب لا تسال طبيب".[62] فصوت أمه يدعوه إلى الحذر والتصرف الصحيح في الحالات الصعبة لذا قرّر مغادرة القرية إلى الجبل مخافة افتضاح أمره.

إننا نرث حكمة الأمهات، كما نرث أخطاءهن أيضاً "دعاوي الوالدين تنفذ في الضناية"[63] فقد كان اللاّز أيضاً غير شرعي من زيدان؛ ولحق به العار في القرية كلّها؛ وعومل بازدراء.

كما تدلُّ بعض الأمثال على أنّ الأمور المتشابهة تجلب بعضها البعض "النخالة تجلب الكلاب" في حديث عن تلك العلاقة المحرمة بين القائد الفرنسي المخنث واللاز الذي يستخدمه لأغراضه "لقد توطّدت بينهما علاقة متينة،راجت حولها أقاويل كثيرة، وتضاربت فيها آراء السكان ... البعض يراها قائمة على القوادة..."[64] لهذا فحياة اللاز المتعبة والشائنة جلبت إليه الضابط "...ويقين أن الضابط لن يقتنع بهذه الخدمة المتواضعة من اللاز... ولو لم تكن هناك خيانة، ما وطئت قدماه، الثكنة"[65].

يشير السّارد الى ماضياللاز الأسود قبل الالتحاق بصفوف الثورة.

وفي نهاية الرواية يتحدّث السارد عن مدى بشاعة الأمر؛ حينما يألف الناس القبح و"الدوام يثقب الرخام".[66] حينما يصبح الشهداء مجرد أرقام بطاقات "إنهم كعادتهم، كلّهم تجمعوا في الصف الطويل، أمام مكتب المنح، لا يتحدّثون إلا عن شهدائهم... إننا نرضى أن يتحول شهداؤنا الأعزاء إلى مجرّد بطاقات في جيوبنا أمام مكتب المنح مرة كل ثلاثة أشهر"[67] غير أن العادة تجعلنا ندمن بعض السلوكاتالمشينة كنسيان الشهداء، ولهذا فرواية "اللاز" كتبت تكريماً لروح قدور ولأرواح كل الشهداء، كتبت ضد النسيان !

وما يمكن قوله أن الأمثال الشعبية وإن تعدّدت سياقاتها وموضوعاتها فيما يخصُّ الرؤى السياسية وتجارب الحياة المختلفة في الحب والحكمة وحتى في نظرة الجزائري إلى الأجنبي، فإنها تعكس جانباً من ذهنية الجزائري عامة والقروي خاصة.

ومما يُمكن استخلاصه أن أحداث رواية "اللاز" تدور في إحدى القرى الجزائرية بالشرق الجزائري على وجه الخصوص، ولعل هذا الفضاء القروي بكل ما يحمله من دلالات وأنساق ثقافية طبعت المكان، فتنوع هذا الموروث الشعبي من عادات وتقاليد تخصُّ اللباس الجزائري (البرانس والشيشان) إلى لعب الورق إلى الأغاني الشعبية التي تعكس جمال وزخم الأغنية الشاوية في تعبيرها عن الحبِّ والتَّمرد ورفض القَهر ومجابهة الاستعمار.

كما يعكس هذا الموروث الشعبي ذهنية الجزائري ورؤيته للأمور (كالتطيّر والحذر من الأجانب؛ خاصة وأن هذا الأجنبي يرتبط بالاستعمار؛ فالكثير من الأمثال الشعبية تعبّر عن ذلك؛ وهي تجسّد رؤى سياسية معينة، كما تجسّد مفهوم الجزائري للحب والحكمة؛ واستخدام السّحر للجلب على سبيل المثال؛ وهنا يتطرَّق السارد إلى الموروث الإسلامي في الحب (المتمثل في كتابات السيوطي)؛ ومن سحر الجلب إلى سحر الأرقام والمتمثلة في تكرار العددين خمسة وسبعة وما يمثلانه في الثقافة الشعبية الجزائرية.

إن رواية "اللاز" برؤيتها السياسية المتميّزة عن الثورة الجزائرية إنما تؤرّخ لحقبة ما، ولكنها قبل ذلك كله ترسم معالم المكان الثقافية المرتبطة بالثقافة الشعبية، ما دام "اللاز" هو الشعب.

الهوامش:

[1] – واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، دط، 1986، ص 130.

[2] – عبد الحميد عقار: الرّواية المغاربية، "تحولات اللغة والخطاب"، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب ط 1، 2000 ص 23.

[3] –ابراهيم سعدي:دراسات ومقالات في الرواية، منشورات السهم، الجزائر (دط)2009، ص62.

[4] – فاروق خورشيد: الموروث الشعبي، دار الشروق، (دب)، ط1، 1992، ص 12.

[5] – حلمي بدير: أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء، الاسكندرية، (دط)، 2002، ص 13.

[6] – أحمد رشدي صالح: الأدب الشعبي، دار المعرفة للنشر، ط 1، بيروت، 1954، ص 5.

[7] – نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار النهضة، ط 2، مصر، 1974، ص 45.

8– الطاهر وطار: رواية "اللاز"، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، (دط) 2007،ص 03.

9– رواية "اللاز"، ص 03.

[10] – رواية "اللاز"، ص 59.

[11] – رواية "اللاز"، ص ص 82.

[12] – رواية "اللاز"، ص 105.

[13] – رواية "اللاز"، ص 100.

[14] – رواية "اللاز"، ص 105.

[15] – رواية "اللاز"، ص 19.

[16] – رواية "اللاز"، ص 11.

[17] – جينيت، الفضاء الروائي، ترجمة عبد الرحيم عزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2002م، ص 21..

[18] – رواية "اللاز"، ص 31.

[19] – رواية "اللاز"، ص 111.

[20] – رواية "اللاز"، ص 22.

[21] – رواية "اللاز"، ص 24.

[22] – رواية "اللاز"، ص 105.

[23] – رواية "اللاز"، ص 127.

[24] – سورة الطلاق، الآية 12ص

[25] – رواية اللاز، ص 81

[26] – د.هباجو: الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، سوريا، 1997م، ص 145.

[27] – رواية "اللاز"، ص 59.

[28] – رواية "اللاز"، ص 48.

[29] – رواية "اللاز"، ص 48.

[30] – رواية "اللاز"، ص 48.

[31] – رواية "اللاز"، ص 25.

[32] – رواية "اللاز"، ص 156.

[33] – نفسه..

[34] – رواية "اللاز"، ص 22.

[35] – رواية "اللاز"، ص 25.

[36] – للمزيد أنظر كتاب "الجنس في أعمال الإمام جلال الدين سيوطي، دراسة وتحقيق حسن أحمد بغام، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، 2001.

[37] – رواية "اللاز"، ص 8.

[38] – رواية "اللاز"، ص 57.

[39] – رواية "اللاز"، ص 179.

[40] – رواية "اللاز"، ص 132.

[41] – رواية "اللاز"، ص 43.

[42] – رواية "اللاز"، ص 25.

[43] – رواية "اللاز"، ص 16.

[44] – رواية "اللاز"، ص 25.

[45] – رواية "اللاز"، ص 35.

[46] – رواية "اللاز"، ص 39.

[47] – رواية "اللاز"، ص 38.

[48] – رواية "اللاز"، ص 39.

[49] – رواية "اللاز"، ص 39.

[50] – رواية "اللاز"، ص 142.

[51] – رواية "اللاز"، ص 142.

[52] – رواية "اللاز"، ص 39.

[53] – رواية "اللاز"، ص 142.

[54] – نفسه.

[55] – الطاهر لبيب: صورة الآخر الغربي، ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 1999، ص 631..

[56] – رواية "اللاز"، ص 148.

[57] – رواية "اللاز"، ص 156.
[58] – نفسه.
[59] – رواية "اللاز"، ص 25.
[60] – رواية "اللاز"، ص 28.
[61] – رواية "اللاز"، ص 29.
[62] – رواية "اللاز"، ص 20.
[63] – رواية "اللاز"، ص 66.
[64] – رواية "اللاز"، ص 11-12.
[65] – رواية "اللاز"، ص 12.
[66] – رواية "اللاز"، ص 220.
[67] – رواية "اللاز"، ص 07.

6. قائمة المراجع:

- **المؤلفات:**

- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1986.
- عبد الحميد عقار: الرّواية المغاربية، "تحولات اللغة والخطاب"، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب ط 1، 2000.
- ابراهيم سعدي: دراسات ومقالات في الرواية، منشورات السهم، الجزائر (د ط)2009.
- فاروق خورشيد: الموروث الشعبي، دار الشروق، (د ب)، ط1، 1992.
- حلمي بدير: أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء، الاسكندرية، (د ط)، 2002.
- أحمد رشدي صالح: الأدب الشعبي، دار المعرفة للنشر، ط 1، بيروت، 1954.
- نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار النهضة، ط 2، مصر، 1974.
- الطاهر وطار: رواية "اللاز"، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، (د ط)، 2007.
- جينيت، الفضاء الروائي، ترجمة عبد الرحيم عزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2002.
- د.هباجو: الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، سوريا، 1997.
- الطاهر لبيب: صورة الآخر الغربي، ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 1999.